

أما في بقية الولايات العراقية، فقد اعتمدت الدولة العثمانية على إيرادات اقطاعاتها التي سيطر عليها العديد من الاقطاعيين الكبار من خلال سيطرتهم على الأرض بأصنافها الاقطاعية - العثمانية (الخواص / الزعامات / والتيمار). ويذكر العديد من المؤرخين بأن ما يقدمه الاقطاعيون في كل الولايات للدولة يساوي نصف إيراداتها كاملة\*. .

## ٥ / بلاد المغرب العربي:

(١) **المقاومة البحرية**\*\* : ظاهرة تاريخية بارزة في الصراع البحري بين أطراف متعددة على سواحل البحار الاستراتيجية خلال التواريخ الحديثة. وقد برزت على نحو فعال وخطير في القرن السادس عشر والقرنين التاليين عليه. واستخدام «مصطلاح القرصنة» من قبل المؤرخين الأوروبيين على نحو يسيء كثيراً إلى الحقائق التاريخية الناصعة في صفحات تاريخ العرب الحديث.. في حين لم تكن المقاومة البحرية خاصة بالغاربة أو الجزائريين أو التونسيين، أو حتى بالأندلسيين المورисكيين.

كانت عملياتهم الجريئة والقوية في الحروب البحرية عبر الحوض العربي من البحر المتوسط بمثابة رد فعل قوي تجاه القرصنة الأوروبية التي عرفتها دول أوروبا في مختلف البحار، وبخاصة الاساطيل الإسبانية والبرتغالية، فضلاً عن الفعاليات الغادرة لفرسان القدس يوحنا وجمهورية فينيسيا.

يقول المؤرخ الفرنسي بروديل -F. Braudel- : «لقد حلّ تاريخ القرصنة العام محل تاريخ الأم والامبراطوريات»، في حين يقول ماسكاتري : «القرصنة مارستها الجميع سواء كانوا من الأوروبيين أم من المغاربة». ويعد تاريخ القرن السادس عشر هو تاريخ العصر الذهبي للمقاومة المغاربية والتونسية خاصة ولابد أن نوضح أسباب ظاهرة المقاومة المغاربية وعوامل نشوئها ونموها وتبلورها:

\* راجع كتابات خليل أناجييك وستانفورد شو وهاملتون كيب وخليل ساحلي او غلو وغيرهم في التاريخ الاقتصادي للدولة العثمانية.

\*\* المقاومة البحرية أو الحرب البحرية هي التي اصطلح عليها بـ«القرصنة» في معظم المصادر التاريخية العربية والاجنبية

١- من الواضح أنه لا يمكن تفسير قيام المقاومة مع أساس الصراع التاريخي القائم عصر ذاك بين الشرق والغرب، فنموا المقاومة المغاربية وخاصة، يعود إلى ظروف معينة. وإن القرصنة ظهرت في ظل وجود علاقات دولية تميزت بتفوق أوروبا = الشمال) من ناحية، وإنحطاط المنطقة العربية (=الجنوب) من ناحية أخرى.

٢- ان المقاومة المغاربية قد اشرف على تنفيذها «الرياس» وهم فئة من الاتراك كانت دخيلة وطارئة على المجتمع العربي، وهم الذين سمح لهم التعليمات العثمانية بتطوير عمليات المقاومة البحرية من خلال توليهم مقاليد الحكم في المغرب العربي. ويظهر - لنا - أنها لم تول أيه عناية لتنمية الموارد المالية التي إكتسبتها من مصادر البحر.

٣- يمكنني أن أضيف عالماً أساسياً آخر، ذلك أن ظاهرة المقاومة البحرية تعدّ البديل التاريخي لعمليات النزوح الموريسيكي الكبير من شبه الجزيرة الإيبيرية عبر البحر المتوسط لآلاف مؤلفة من السكان الذين كانوا يمتلكون أوطناناً قديمة عمرها قرابة ثمانية قرون، خاصة وأنهم كابدوا شقاء عميقاً حتى بعد إستقرارهم في المغرب العربي. فالمقاومة البحرية رد فعل موريسيكي عربي مغاربي ضد تجاوزات أوروبا الكاثوليكية وإمتداداتها.

أما دوافع المقاومة البحرية\*، فيمكننا حصرها على التوالي:

١- إنها تتماشى ونزعه رياض البحر الاتراك ضد أوروبا.

٢- كانت الانظمة الحاكمة المتعددة في المغرب العربي بحاجة إلى الأموال منذ بداية تأسيسها في القرن السادس عشر.

٣- تدهور التجارة بسبب إنقطاع تجارة الذهب السوداني التي كانت عملياتها رائجة دولياً من خلال السودان الغربي.

---

ان ابرز من عالج تفصيلات هذا الموضوع كل من المؤرخ الجزائري احمد توفيق المدنى والمؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي. انظر عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسيكيين الاندلسيين، (TIRCOMI)، ١٩٨٩، زغوان.

- ٤- حلول النقود الأوروبية وإنشارها، وخاصة الإسبانية منها محل النقود المغربية، مما أثر تأثيراً بالغاً على تبلور ظاهرة القرصنة.
- ٥- إنتعاش القرصنة الفرنسية في عهد الدياي عثمان، ويعمل ذلك بنزوح المرتزقة الذين كانوا يشكلون الإطار التقني الضروري.
- ٦- نزوح الاندلسيين- الموريسيكين الذين فروا بدينهم نحو السواحل المغاربية/ العربية، وكانوا أنقذوا على الإسبان وذلك للممارسات القمعية ومحاكم التفتيش. الإرهابية ضد المسلمين والميهود معاً.
- ٧- إن المغاربة العرب مارسوا عمليات بارزة في الحرب البحرية في ظروف اقتصادية وسياسية صعبة ومعقدة، فقد كان هناك صراع بين الشمال والجنوب في التجارة الدولية.. وكان هناك تسابق في المصالح الاقتصادية، فقد منع التجار المسلمين من حق الملاحة في البحر على حساب التجار الأوروبيين. وقد قال أحد القناصل الفرنسيين يوماً: «إن تجارة مرسيليا إنما تتوقف على القضاء المبرم على تجارة المغاربة».
- ٨- في ظل تلك الظروف التاريخية التي رافقتها تحولات كبرى في العالم فقد تحولت «الحروب البحرية» إلى شكل من أشكال جمع الثروة، ووسيلة من وسائل عيش المغاربة.
- ٩- أصبحت القرصنة- فيما بعد-، وسيلة ضغط في أنظمة الحكم المغاربية لحمل الدول الأوروبية التي لا تعترف بالحكومات والإدارات المغاربية.
- ١٠- وهناك دوافع أخرى، أبرزها: الدافع الديموغرافي بتنامي عدد السكان في منطقة المغرب العربي، وبشكل كبير دفع بالمدن الساحلية أن تغدو مراكز إمتداد جغرافي عميق في البحر المتوسط.

#### (٢) دایات تونس ١٥٩١ - ١٦٤٠ والتکریب التاریخي:-

انتصرت حملة سنان باشا الذي تؤدي نتائجها في سنة ١٥٧٤ م إلى انهاء الوجود الإسباني من السواحل التونسية، واسقاط نظام الحكم الحفصي والدولة

الحفصية. فتحولت تونس تاريخياً إلى إيداله عثمانية مهمة من إيداله الدولة المتعددة بعد ان ورثها الحفصيون جملة من التقاليد السياسية والاعراف الاجتماعية. وقد نصب في حكم تونس قائد عسكري برتبة «باشا» له إشرافه على الجيش الانكشاري الذي بلغ عدده أربعه ألف، جندي. ويقف على رأس الجيش قائد برتبة «الأغا»، وقسم هذا الجيش الى عدد كبير من الفرق العسكرية، وقف على رأس كل فرقة ضابط برتبة «داي».

سيطر الجيش العثماني على جميع المناطق التونسية لاقرار الامن والنظام، وترسيخ نظام حكم جديد من خلال فعاليات الجيش الانكشاري. وانتشرت في الموانئ البحرية قطعات اسطول بحري عثماني يرأسه «قبطان رئيس» الذي كان يشرف على كبار الضباط وكانت له مهمة الفصل في شؤون الجيش، وادارة الولاية، وتنصيب «الباشا» ضمن مهام هيئة عليا اطلق عليها «الديوان».

خلال هذا العهد، كانت تونس تابعة للادارة العثمانية في الجزائر، وقد بقيت على تلك الحال حتى سنة ١٥٩٠م، إذ انفصلت، واصبحت، تحت حكم الباشوات الذين ينصبهم الباب العالي، والى جانبهم «الدايات» المختارون من قبل الجيش الانكشاري ولقد بلغ عهد الدايات اوج قمته من حيث سمو المكانة والتصرف المطلق، والقوة في البر والبحر، وقام الدايات باعمال خطيرة جسدها ظاهرة «القرصنة» وخاصة في عهد اسطو مراد داي.

لقد دام عهد الدايات في تونس للفترة ١٤٠-١٥٩١م، متميزاً بانتقال السلطنة الفعلية من الباشا والديوان الى «الدايات» الذين كانوا على رأس الفرق العسكرية- الانكشارية. ويعود هذا الانقلاب في النظام المحلي الى جملة من الاسباب التاريخية، هي:

١- شعور الدايات بنفوذ متزايد بسبب تحكمهم من الطائفة العسكرية- الانكشارية، وبسبب مأموريتهم وخدماتهم الكثيرة في جمع الضرائب، والحفاظ على الامن والاستقرار في كل من المدن والمقاطعات.

٢- لقد نجح الدايات كفئة لها امتيازاتها في اجهزة النظام ان تتحالف مع الجندي لهم، من خلال منح الرواتب والعطايا.

### ٣- استبداد الباشا والسلطات النافذة للديوان في الحكم المطلق.

تأثير الديايات بما كان يجري في الجزائر من احداث سياسية، حيث كانت طائفة الانكشارية هناك قد قلبت نظام البايلر بيكت.

هذه هي بعض الاسباب التي بدأت تونس من خلالها تستحوذ على شخصية عثمانية لها، ولكي تتميز عن الايالة الجزائرية ببعض الخصائص، وإلى غاية ١٥٩٠م كانت ايالة تونس تابعة للجزائر، لكي تغدو بعد تلك السنة تابعة للاستانة تبعية مباشرة، لكي يأخذ التاريخ الحديث لتونس له مساراً آخر.

ويمكننا ان نوضح - هنا - أن الايالة التونسية قد مرّت باربعة عهود تاريخية أساسية، في تكوينها الاجتماعي والاقتصادي الحديث ومن خلال علاقاتها المتميزة بالعثمانيين الذين وفروا لها مناخاً له سماته وخصائصه من التفاعل الاقليمي بازاء الايالتنين الماجورتين : طرابلس الغرب شرقاً والجزائر غرباً، وحركة الاتصال باروبا شمالاً سلباً أم ايجاباً... ان العهود العثمانية التي مررت بها تونس العثمانية تعد بمثابة انساق تاريخية لها، وكان العهد الاخير بمثابة قاعدة تاريخية ترسخت من خلالها النزعة الوطنية - التونسية ضد نظام الحماية الفرنسية حتى الاستقلال وإعلان نظام سياسي جديد عام ١٩٥٧ يقوده الحبيب بورقيبة وتحت اعلان «الجمهورية التونسية»، والعهود التاريخية، هي :

١- عهد الباشوات ١٥٧٤-١٥٩٠م.

٢- عهد الديايات ١٥٩١-١٦٤٠م.

٣- عهد الاسرة المرادية ١٦٥٩-١٧٠٥م.

٤- عهد الاسرة الحسينية ١٧٠٥-١٩٥٧م \*.

---

\* التفاصيل في : د. سيد الجميل «نظام الادارة العثمانية الامركزية في الولايات العربية ...»، بحث مقدم الى المؤتمر الدولي الرابع للدراسات العثمانية، تونس، ١٩٩٠، وانظر ايضاً -

Robert Mantran "L'évolution des relations entre la Tunisie et l'empire ottoman du 16 au 19 siècle" Cahiers du Tunisie, 2 et 3 trim. 1959.